مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أفسس ٢: ٤–١٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لِكونِه غنيًّا بالرحمةِ ومن أجلِ كثرةِ محبّتِه التي أحبّنا بها* حين كنَّا أمواتاً بالزّلاَّت أحيانا مع المسيح. (فإنَّكم بالنِعمةِ مخلَّصون)* وأقامَنا معه وأجلسنا معهُ في السماويَّات في المسيحِ يسوع* ليُظهِر في الدهورِ المستقبَلةِ فَرْطَ غِنى نِعمتِه باللطفِ بنا في المسيح يسوع* فإنَّكم بالنِعمةِ مخلَّصون بواسِطةِ الإيمان. وذلك ليس منكم إنَّما هو عطيَّةُ اللهِ* وليس من الأعمالِ لئلاَّ يفتَخِرَ أحدٌ* لأنَّا نحنُ صُنعَهُ مخلوقينَ في المسيحِ يسوعَ للأعمالِ الصالِحةِ التي سبقَ اللهُ فأعدَّها لنسلُكَ فيها.

الإنجيل

(لوقا ١٨: ٣٥–٤٣)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ بالقربِ من أريحا

التواضع عند البار بورفيريوس

اليوم بداية كانون الأول، الشهر الذي نحتفل فيه بعيد الميلاد المبارك، عيد الحب الإلهي. ربّنا أحبّنا وتنازل متواضعاً ليصير إنساناً مولوداً في مغارة ومضجعاً في مذود البهائم ليمنحنا الخلاص الموعود. في اليوم الثاني من شهر كانون الأول نقيم تذكار أبينا البار بورفيريوس الرائي، لذا قد يكون من المفيد بعد أن رأينا بأمِّ العين تواضع سيّدنا يسوع المسيح، أن نقرأ بعض كلمات عن التواضع، اختبرها قديسُنا في حياته قبل أن يتفوّه بها.

يقول البار بورفيريوس: «من الممكن أن يتكلّم أحدٌ على خطاياه ويكون متكبّراً، ويتكلّم آخر على فضائله ويكون متواضعاً». إن موضوع التواضع دقيق وبعض أبناء الكنيسة يسيء فهمه وعيشه فيؤذون أنفسهم ومَن هم حولهم.

لقد قارب البار موضوع التواضع بكلام دقيق يعبّر عن خبرة صاحبه في مواجهة تجارب الشرير المتنوعة: «يجب أن يبتعد المؤمن عن الشعور بسموّ فضيلته، وبالقدر ذاته يجب أن يبتعد عن الشعور بدناءة خطيئته». عندما زاره أحد الأطباء النفسيين منتقداً المسيحية لأنها تسبّب الكآبة والشعور بالذنب، قال له: «صحيح أن بعض المسيحيين يقعون في فخ مرض الشعور بالذنب المفرط من جراء خطاياهم، ولكن الأشخاص الدنيويين يقعون في فخ مرض أسوأ هو الكبرياء. يزول شعور المؤمنين بالذنب عندما نقترب من المسيح بالتوبة والاعتراف، أما كبرياء البعيدين عن المسيح فلا يزول».

مَن يجاهد ليكون مع المسيح يحاول أن يتعلّم التواضع الحقيقي. إنه يتجنب الكبرياء المتخفي في أمرَين متناقضَين ظاهرياً: تبرير الذات كما كان يفعل الفريسيون الذين كانوا يتفاخرون بحفظهم للناموس، وإدانة الذات بطريقة مَرَضية تجعل الإنسان يحيا في شعور دائم بالذنب. إن جسارَة المعتبَرين صالحين في أعين أنفسهم وجُبنَ مَن يشعرون بذنب دائم ينتجان كلاهما عن الكبرياء الذي لا يسمح لهؤلاء بالتوقف عن خطاياهم ومحوها بالإعتراف. أما الإنسان المسيحي المتواضع فيتحرّر من الشعور

العدد ٢٠١٣/٤٨

الأحد ١ كانون الأول

تذكار القديس ناحوم النبي

اللحن السادس

إنجيل السَحَر الأول

كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي* فلمَّا سمعَ الجمعَ مجتازاً سألَ ما هذا* فأُخبرَ بأنَّ يسوعَ الناصريَّ عابرٌ* فصرخَ قائلاً يا يسوعُ ابنَ داودَ ارحمني* فزجَرَهُ المتقدِّمون ليسكُتَ فازداد صُراخاً يا ابنَ داودَ ارحمني* فوقف يسوعُ وأمرَ أنْ يُقدَّمَ إليهِ* فلمَّا قَرُبَ سألهُ ماذا تريدُ أن أصنعَ لك. فقال يا ربُّ أن أُبصِرَ* فقال لهُ يسوعُ أَبصِرْ. إيمانُكَ قد خلّصك* وفي الحال أبصَرَ وتبعَهُ وهو يمجّدُ اللهَ. وجميعُ الشعبِ إذ رأوا سبَّحوا الله.

تأمل

كان هذا الأعمى أفضل من كثير ممن يبصرون. لم يكن له مرشد، لم يستطع أن يرى الرب، وبالرغم من ذلك اجتهد أن يقترب منه وأخذ بالصراخ بملء صوته. فمنعه الجمع ومع ذلك تابع الصراخ بازدياد. هكذا تكون النفس الملحّة في طلبها.

أما المسيح فقد ترك الجمع يمانعه حتى يبرز عزمه أكثر وحتى نعلم أنّه استحق الشفاء عن جدارة. لذلك لم يسأله يسوع: «أتؤمن؟ الأمر الذي كان يفعله للآخرين، لأن بالذنب عبر الإعتراف، ويدرك جيداً أن من يحرّره من رباطات الخطيئة هو الرب يسوع لذلك يشعر بامتنان وراحة دائمَين ولا يتكبّر. إنه لا يتكبّر لأنه يعرف خطاياه ويعرف أنه بالنعمة مخلَّص، كما أنه يرى الآخرين صالحين لأنه ينظر إلى خطاياه أولاً ولأنه واثق أن الرب يسوع تجسد ومات وقام ليمنح الخلاص للجميع.

كان الأب بورفيريوس يحث أبناءه الروحيين على تجنّب الكبرياء إذا ما فعلوا فضيلة معينة وذلك عبر اقتناء فضيلة التواضع. هناك تواضع حقيقي وآخر مزيّف ومصطنع: «يجب أن نكون متواضعين لا أن نصطنع التواضع. إن اصطناع التواضع هو فخّ ينصبه الشيطان، وهو يجلب اليأس والخمول. في المقابل، يجلب التواضع الحقيقي الرجاء والعمل بوصايا المسيح». مَن يتمعّن في هذا الكلام يفهم أن الشيطان كثيراً ما يدفع الإنسان ليشعر بذنب مفرط جرّاء خطاياه يجعله واقفاً وعاجزاً عن المضي قدماً في نموّه الروحي. هذا الاصطناع للتواضع يجعل الإنسان يائساً من خلاصه لأنه في أعماقه يفتكر نتيجة كبرياء مستتر أنه هو مَن يخلّص نفسه فييأس من عجزه. أما التواضع الحقيقي فيجعل الإنسان في رجاء دائم، فالمتواضع يعرف أن الخلاص هو من الله ولذلك يجتهد ليعمل بحسب تعاليم المسيح وليحفظ وصاياه واضعاً رجاءه على المخلّص وليس على نفسه.

من المعروف عن الأب بورفيريوس أنه كان يتمتع بنعمة من الله ليرى أفكار الناس وأعماقهم حتى دون أن يتكلّموا. وكثيراً ما كان يتخطى حواجز المكان ليعرف أموراً ومشاكلَ تحصل في أماكن بعيدة وليساعد في حلّها بطريقة عجائبية. لكنه لم يسمح لنعمة البصيرة التي تمتّع بها ولا للعجائب التي كانت تحصل بواسطة صلواته، أن تؤثّر على تواضعه أو أن تدفعه للكبرياء. فهو كان دائماً ينسب العظمة لأعمال الله معتبراً نفسه مجرّد وسيط لا أهمية له وأداةٍ بين يدي الله، وقد قدّم لله أذنيه ليسمعه بها ولسانه ليتكلم من خلاله.

عادةً عندما تمدح غير المؤمنين أو الضعفاء في الإيمان فإنهم يفرحون حتى لو أدركوا أن المدائح هي تملق ومداهنة، وعندما توبّخهم يتجهمون ويغضبون ولو كشفت التوبيخات حقيقتهم. هذه القاعدة ما كانت تسري على البار بورفيريوس بل عكسها تماماً: كان يحزن عندما يتعرّض للمديح ولو كان مديحاً صادقاً، ويفرح شاكراً من يذمّونه ولو جَوراً.

كان البار بورفيريوس يعلّم أن نعمة الله هي التي تصنع كل شيء. هي تقدّس الإنسان وتصنع العجائب. لكنه كان يعتبر أن النعمة ترتبط مباشرةً بالتواضع، وهي تبتعد عن المتكبرين. «إذا وافت نعمة الله فهي تغيّر الجميع وتغيّر كل شيء. ولكن كيف تأتي النعمة؟ ينبغي أولاً أن نتواضع». إن أساس كل الخطايا هو الكبرياء وهو في أساس سقوط ملائكة، والكبرياء يحرمنا من اختبار توبة صادقة. لكن إن تعلّمنا التواضع فستنحدر علينا نعمة الله التي تصنع فينا العجائب.

التواضع والطاعة مترابطان بالنسبة له: «إنهما أمرٌ واحد». لا يستطيع المؤمن أن يغلب الكبرياء إلا عبر التواضع الذي نتعلّمه من خلال ممارسة الطاعة لوصايا الله ومشيئته ولتعاليم الكنيسة. لنا مثال على ذلك ربنا يسوع المسيح الذي: «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في ٢: ٧–٨).

صراخه ومبادرته تبرهن كفاية عن إيمانه.

لنتعلّم أيها الأحباء من كل هذا انه ولو كنا مرذولين ومزدرى بنا، إن تقدّمنا من الله بعزم كبير نستطيع أن نحظى بطلبنا. أنظروا كيف ان هذا الأعمى لم يساعده أحد من الرسل، بينما أخذ الكثيرون يمنعونه من الصراخ ومع ذلك استطاع أن يتجاوز الحواجز ويأتي بالقرب من يسوع. لقد اكتفى الإنجيلي هنا بإظهار عزمه الطيّب. فلنتشبّه إذاً به.

حتى ولو أرجأ الله جوابه أو وجدنا حواجز أخرى فلا نتوقَفَنّ عن الطلب، لأن هذه الطريقة حصراً هي التي تجعلنا نحظى بمعونة الله. أنظروا حالة الأعمى الفقير، الذي كانت الجموع تمنعه من الصراخ وقد لا تستجاب طلبته، كل ذلك لم يمنعه عن عزمه الكبير. هكذا تكون النفس الملتهبة بالإيمان والتائقة إلى الفضيلة.

«فوقف يسوع وأمَرَ أن يُقدَّم إليه. فلمَّا قَرُبَ سأله ماذا تريدُ أن أصنعَ بك؟ فقال يا ربُّ أن أُبْصِر. فقال له يسوعُ أَبصِر. إيمانك قد خلَّصكَ» (لو

القديس يوحنا الدمشقي

يوحنا الدمشقي، دفّاق الذهب، أو الدمشقي كما هو معروف (٦٧٦–٧٦٠). هو منصور بن سرجون الذي التحق بدير القديس سابا حيث أصبح راهباً وظهرت قداسته. ذاعت شهرة هذا القديس الأنطاكي إبن مدينة دمشق في سائر أنحاء العالم. تعيّد له سائر الكنائس (٤ كانون الأول) إذ تعترف بقداسته إلى جانب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية مختلف الكنائس الغربيّة التي تتبع البابويّة. تكريم هذا القديس يأتي من كونه قدّم خلاصة لفكر الآباء الكنسيين الذين سبقوه. إشتهر بكتاباته ومواعظه إذ بالإضافة إلى الخلاصة العقائديّة، كتب الكثير من القطع الليتورجيّة، وجمع الموسيقى البيزنطيّة في ألحانها الثمانية. أمّا النقطة الأهمّ في حياة هذا القديس فهي دفاعه عن الأيقونات والإكرام الذي يظهره المؤمنون لهذه الأيقونات.

في ظلّ الحملة الشرسة التي سعت إلى تحطيم الأيقونات ومنع رفعها في الكنائس والمنازل، كتب قدّيسنا ثلاثة خطابات في مواجهة الإمبراطور لاون الثالث، مدافعاً عن الأيقونات. يُظهر الدمشقيّ في هذه الخطب الفارق بين الأيقونات المصوّرة والتماثيل كما يوضح الفارق بين العبادة والإكرام.

في مطلع دفاعه يشرح القديس أنّ الأيقونات تصوّر الإله المتجسّد الذي رآه الناس بأمّ العين. ويضيف إلى ذلك «لو كنّا صنعنا صور أناس ظانّين أنهم آلهة وعبدناهم على هذا النحو لكنّا كفّاراً». يفهم القديس وصيّة الرب في الكتاب المقدّس «لا تصنع لك صورة شيء ممّا في السماء من فوق ولا ممّا على الأرض من تحت» أنّها تحريم للشعب الذي لم يكن قد عاين الإله إذ لم يكن التجسّد قد حصل بعد. الشعب الذي يتوجّه إليه العهد القديم وقع مرّات كثيرة في عبادة الأصنام كما حصل عندما كان موسى على الجبل فصنعوا عجلاً من ذهب (خر٣٢: ٦).

في حديثه عن قيمة الأيقونات يقابل الدمشقي بين الكتاب المقدّس والأيقونة. الكتاب المقدّس يعلّم المؤمن عن تجسّد ابن الله وحياته على الأرض وكلّ الأمور الخلاصيّة التي حصلت من أجلنا. هذا في ما خصّ مَن يجيدون القراءة. أمّا الأيقونة فتعطي هذه التعاليم عينها للأميّين الذين لا يجيدون القراءة. لذلك يشدّد على ألاّ تنحصر الأيقونات بصورة السيّد فحسب، بل أن تصوّر كذلك الأعمال الخلاصيّة أيضاً، الصليب والقيامة والصعود وغيرها من الأحداث. كما يشير إلى تصوير القدّيسين في الأيقونات بهدف إظهار مجد الله الذي يظهر في قداسة هؤلاء. ويكرّر قول القديس باسيليوس الكبير في إكرام الأيقونات بأنّ الإكرام ليس للخشبة ولا للألوان المستخدمة، إنّما هو إكرامٌ يجوز إلى العنصر الأول. يشكل القدّيسون مثالاً للأميّين لتعلّم الفضيلة والصلاح الذي تحلّى به القدّيسون.

في طريقة الإكرام الذي يقدَّم أمام الأيقونات، يدافع القديس عن السجود أمامها مستنداً إلى أمثلة من العهد القديم فيظهر أنواعاً مختلفة من السجود. إبرهيم ودانيال ويشوع سجدوا لبشر ولملائكة ولكن لم يعبدوهم. لقد قدّموا إكراماً لآخرين لا عبادة وهنا يظهر الفارق. يكمن إذاً الفارق بين السجود والعبادة في نيّة وقصد الشخص.

في هذا الإطار يميّز الدمشقي بين أنواع مختلفة من السجود. سجود العبادة الذي يليق بالله وحده.

١٨:٤٠ –٤٢). لماذا سأله؟ حتى لا يعتقد الواحد انه طلب شيئاً وأعطاه شيئاً آخر. لقد اعتاد الرب في حالات أخرى أن يظهر أولاً فضيلة المريض وبعدها يشفيه. هذا لكي يجعل الآخرين من جهة يتشبّهون به ومن جهة أخرى لكي يبيّن أنه يستحق الشفاء.

بعدما عبّر الأعمى عن طلبه تحنّن الرب عليه وقال له أبصِر. هذا التحنن طبعاً كان السبب الوحيد للشفاء ومن أجله جاء إلى العالم. ولكن مع ان الشفاء كان نتيجة الرحمة والتحنن لكنه يتوجّه إلى المستحقين له (فيفعل فيهم). كان الأعمى مستحق لهذه الرحمة بسبب صراخه الشديد ولأنه بعد الشفاء لم يتخلَّ عن الرب، الأمر الذي يفعله كثيرون معبّرين عن إنكارهم للنعمة والإحسان. على العكس كان الأعمى صابراً قبل الشفاء وشاكراً بعده، وتبعه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

سجود الإكرام الذي يقدّمه المؤمنون للقدّيسين كشفعاء لهم وكمثالٍ روحيّ. وآخر أنواع السجود هو الذي يتبادله البشر فيما بينهم وينحصر بإظهار الإكرام والمحبّة.

يميّز الدمشقيّ كذلك في موضعٍ آخر من رسائله بين عدّة حالات سجود لله. الحالة الأولى هي بحسب العبادة سبق وأشرنا إليها، لا تؤدّى إلاّ لله وهي عبادةٌ طوعيّة تؤدّى إراديًّا من المؤمنين، كمخلوقٍ يعبد خالقه. الحالة الثانية هي حالة مَن يسجدون بسببٍ من الإعجاب بمجد الله وقوته. الحالة الثالثة هي الشكر على الخيرات التي أعطانا إياها الله. الحالة الرابعة يأتي فيها السجود بداعي الطلب، وهي عندما نكون بحاجة إلى إحسانات الله. أمّا الحالة الخامسة والأخيرة التي يعرضها الدمشقي فهي في حالة التوبة حين نخرّ ساجدين أمام الله معترفين بخطايانا. هذه الحالات المختلفة ليست بالضرورة منفصلة عن بعضها البعض. ممكن أن تتزامن وتترافق في أحيانٍ مختلفة. مثالٌ على ذلك القديس نفسه الذي ما انفكّ طبعاً عن تقديم السجود كعبادةٍ لله ولكن ترافقت هذه العبادة مع سجود طلب فيه من والدة الإله أن تشفي يده التي قطعها الخليفة عمر بن عبد العزيز إثر مؤامرة قام بها الإمبراطور لاون لردع القديس عن الكتابة دفاعاً عن الأيقونات وكانت العذراء خير وسيط له وعادت يده إلى الكتابة.

يركّز الدمشقي في دفاعه على أنّ المسيحية لا تحاكي أصناماً أو أيّ مادّة جامدة. يخاطب المؤمنون إلهاً حيًّا وقدّيسين يتلألئون في مجده. «إنّي لا أسجد للمادّة بل لخالق المادّة الذي صار مادّةً من أجلي». شكّلت تعاليم القديس يوحنا الدمشقي، حول العبادة واستخدام الأيقونات في الكنيسة، خير مادّةٍ استخدمها آباء المجمع المسكوني السابع حين وضعوا العقائد الموجبة لتكريم الأيقونات ورفعها في الكنائس.

تذكار البار بورفيريوس الرائي

بمناسبة تذكار أبينا البار بورفيريوس الرائي تُقام خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الأحد ١ كانون الأول وخدمة السَحَر عند التاسعة والقداس الإلهي عند العاشرة من صباح الإثنين ٢ كانون الأول في كنيسة أبوينا البارين أنطونيوس الكبير وبوفيريوس الرائي في دار المطرانية.

عيد القديس نيقولاوس

بمناسبة عيد القديس نيقولاوس تُقام خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الخميس ٥ كانون الأول وخدمة السَحَر عند التاسعة والقداس الإلهي عند العاشرة من صباح الجمعة ٦ كانون الأول في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية.

سيامة كاهن

تُقام عند التاسعة من صباح الأحد ٨ كانون الأول ٢٠١٣ خدمة السَحَر في كاتدرائية القديس جاورجيوس، يليها القداس الإلهي عند العاشرة وخلال القداس سوف يشرطن سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس الشماس بورفيريوس جرجي كاهناً.